23 مارجريت ميتشل

«نعم، نعم، لقد تمكنت، وأعتقد بأن النساء يستطعن فعل كل شيء فى الدنيا، ولسنا بحاجة إلى أى رجل، اللّهم من أجل الإنجاب، وبهذا الخصوص، فما من امرأة عاقلة - فى الواقع - ترغب طوعاً بإنجاب طفل».
على لسان بطلة رواية ذهب مع الريح سكارليت أوهارا

الروائية الأمريكية، صاحبة الرواية الأشهر : ذهب مع الريح، والأكثر انتشاراً فى العالم .

حصلت الكاتبة على جائزة بوليتزر عام 1937

أرفع جائزة أدبية تُمنح فى أمريكا .

تحوَّلت رواية ذهب مع الريح إلى فيلم سينمائى عالمى حصد العديد من جوائز الأوسكار، ويعتبر من أكثر الأفلام شعبية وجاذبية فى تاريخ السينما حتى وقتنا الراهن .

رحلت المؤلِّفة فى حادث مفجع عن عُمْر يناهز 49 عاماً دون أن تتمتع كثيراً بالشهرة والمال !!

الميلاد وذكريات الطفولة :

ولدت الروائية الأمريكية «مارجريت ميتشل» Margaret Mitchell فى عام 1900م . عملت فى الصحافة، ممَّا جعلها تُغطى أحداث كثيرة فى بلادها، وقد أكسبتها مهنتها كصحافية ثقافة واسعة، وروح وحيوية ممَّا كان له تأثير كبير على إبداعها الروائى، بالمقارنة بما يُعرف بالكتابات المنزلية أمثال : «جين أوستن» .

إبداع «مارجريت ميتشل» الروائى :

ذهب مع الريح :

تقع أحداث الرواية فى الجنوب الأمريكى على مدى اثنى عشر عاماً من حياة البطلة سكارليت أوهارا قبل وبعد اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية . وتصور الرواية أيضاً علاقة البطلة ببطل الرواية ريت بتلر فى قصة حب تجمع بين الحب والكراهية فى آن واحد !!

يبدأ تاريخ كتابة رواية «ذهب مع الريح» Gone with the wind فى فترة العشرينيات من القرن المنصرم حينما أصاب كسر فى ساق «مارجريت ميتشل» تلك الصحافية الشابة التى تعيش فى مدينة «أتلانتا» بولاية جورجيا الأمريكية، وذلك كى تستفيد من أوقات فراغها الطويلة، فقرَّرت تأليف رواية مبنية فى حبكتها على الحكايات التى رواها لها جدُّها عن حياة أفراد أُسرتها الذين عاشوا الحرب الأهلية الأمريكية وفترة الإعمار التى أعقبتها .

وقد عكفت «مارجريت» على تأليف روايتها على مدى ثلاث سنوات متتالية، انتهت فى عام 1929م دون أن تفكر للحظة واحدة فى نشرها. إلاَّ أن زوجها «جون روبرت مارش» أقنعها بعد عدة سنوات بعرضها على أحد محررى «ماكميلان» للنشر بينما كان يزور مدينة «أتلانتا» . وقام ذلك المُحرر بقراءة نصّ الرواية فى طريق عودته بالقطار إلى مدينة نيويورك، ولم يكد يصل إلى تلك المدينة حتى كان قد قرَّر نشر الرواية، وبالفعل صدرت فى عام 1936 م .

أحداث الرواية وحبكتها الدرامية :

تقع أحداث الرواية على مدى اثنى عشر عاماً من حياة البطلة «سكارليت أوهارا» التى تُشكِّل شخصيتها محور الرواية الرئيس .

وتبدأ الرواية قبل اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية مباشرة حيث كانت «سكارليت» فى سن السادسة عشرة، وتتعقب المؤلِّفة حياتها عبر فترات الإعمار فى الجنوب الأمريكى التى أعقبت تلك الحرب .

تُبرز الرواية ويلات الحرب الأهلية التى خلَّفت وراءها الدمار فى الجنوب حيث يذهب كل شىء مع الريح !!

وقد وصفت الرواية بأنَّها بانوراما الجنوب الأمريكى فى فترة الحرب، لدقة التفاصيل التى أوردتها «مارجريت ميتشل» عن المعارك، وعن أسلوب الحياة فى الجنوب قبل وبعد الحرب، هذا عندما يود أحد أن يُضيف قيمة للعمل الأدبى غير سمة الرومانسية . كما سجلت الرواية الأحداث التى صاحبت فترة الكساد العظيم الذى ضرب أمريكا، والذى غيَّر الواقع الاجتماعى فيها بصورة درامية . كما تُركز على علاقة البطلة «سكارليت» ببطل الرواية «ريت بتلر»، وهى واحدة من أشهر العلاقات الغرامية فى تاريخ الأدب والسينما، علاقة جمعت بين الحب والكراهية فى آنٍ واحد .

حينما نتعرَّفُ على خصال وصفات البطلة «سكارليت» نستشفه مع بداية الرواية حيث يجرى حوار بين والدها «جيرالد أوهارا» وصديقته السيدة «تارلتون» حول تربية الجياد وعن قوة الهجين وقدرته على البقاء والاعتماد عليه، ويشيرون فى الحوار إلى «سكارليت» ويشبهونها بـ «الحصان الهجين» وتقدم الرواية «سكارليت» أيضًا كشابة جميلة ومدللة، حادة الطبع، أنانية وعملية أيضاً، طموحة، ولها قوة وإرادة حديدية .

و«سكارليت» أمها «إيلين روبيلارد» سليلة أسرة فرنسية عريقة ووالدها هو «جيرالد أوهارا» سليل أعرق العائلات الإيرلندية.

تعيش «سكارليت» مع أسرتها التى تضم ثلاث بنات هى أكبرهن سناً. وهى تستهجن حالة الفقر النبيل التى تمسك بها الجنوبيون، إلاَّ أنَّها تلتزم بمعايير الأخلاق الجنوبية .

وها هى «سكارليت» تعيش بين رجلين، الرجل الأول هو «إشلى ويلكس» الذى تحبه إلى حد الهوس، ولكنه يتزوج بغيرها . وما نعرفه عن «ويلكس» فى الرواية أنَّه رجل يحب أن يعيش ويقضى معظم وقته ساهماً فى أوروبا، ويقتبس أحاديثه من كتب الشعر، رجل افتقد روحه بعد الحرب الأهلية، تصفه «سكارليت» بقولها : «يده لم تُخلق للعمل، وجسده لم يكن خليقاً سوى أن يُغطى بأجود أنواع القماش، الرَّبُّ خلقه كى يجلس

فى منزل كبير فخم، يتحدَّث مع أُناس لطفاء، يعزف على البيانو، ويكتب أشياء تبدو لطيفة، لكنها دون معنى على الإطلاق!!».

و«إشلى ويلكس» سيظل طوال أحداث الرواية فى حالة مزرية، متعلق بالأيام القديمة فى الجنوب الأمريكى، غير قادر على أن يتحمَّل التغيير الذى طرأ.

وهو يصف حالة قائلاً: «إنَّها لعنة ياسكارليت، أن أرفض النظر إلى الأشياء بحقيقتها العارية، حتى مجىء الحرب لم تكن الحياة لى سوى مسرح ظل على ستارة، وهكذا فضلتها. لا أحب أن تكون ملامح الأشياء حادة، أفضلها ناعمة ومتماوجة، قبل الحرب كانت الحياة جميلة، كان هناك بريق كمال واكتمال وتناسق كما الفن الإغريقى».

ويستمر «إشلى» فقط بفضل «سكارليت» بتماسكها الذى يعوضه عن تفككه هو، ويستمر أيضاً بفضل زوجته «ميلانى» وحدها التى كانت تتفهم تعلقه بالماضى غير الحقيقى، وعندما تموت يشعر بالضياع.

كان «إشلى» يشتهى «سكارليت»، قوة الحياة فيها، عنادها، لكن «سكارليت» كانت مخاطرة، هو يعلم أنَّها كانت ستلقى به إلى حتفه، فهو لا يملك أدوات النجاة لهذه المخاطرة، لذا فضَّل الزواج من «ميلانى» ابنة عمه (ذات الصحَّة المعتلة، والطبع الرقيق، والتى تعد رمزاً للطيبة وسمو الأخلاق)، لذا يقول لحبيبته «سكارليت» معترفاً: «لقد حاولت أن أتجنبكِ، أنتِ المليئة بالحياة والحقيقة، وجبنى جعلنى أُفضِّل الأحلام والظلال.».

وكرد فعل غاضب من «سكارليت» تقوم بالزواج من شاب تخطفه من شقيقه «إشلى»، وبعد وفاة هذا الشاب فى الحرب، تتزوج من آخر تخطفه من شقيقتها الصغرى، ثم سرعان ما ينتهى الزواج !!

أمَّا الرجل الثانى فى حياة «سكارليت» فهو «ريت بتلر» الذى نعلم منذ اللَّحظة الأولى من بداية الرواية أنَّه سليل أسرة عريقة نبذته بسبب رفضه الزواج من فتاة قضى ليلة معها خارج منزلها (بسبب المناخ ودون أن يحدث بينهما شىء) فقد كان يرى أن هذا تقليد سخيف ولا يحمل أى منطق، فأصبح منبوذاً من النبل الجنوبى،

وحمل «بتلر» لواء التمرُّد فى حياته . كان مشهوراً بعلاقاته مع النساء لفرط جماله وحيويته، وسخريته الدائمة من العادات الجنوبية، وسخريته من وهم الجنوبيين بأنَّهم سينتصرون فى الحرب الأهلية . كان ثرياً بسبب تجارة البضائع المُهربة التى استفادت تماماً من الحصار المفروض على الجنوب فى توتُّر ما قبل الحرب الفعلية . وكان أكثر ما يعجبه فى «سكارليت» هو الجانب العملى فيها الرافض أن يتمسك بالقديم طالما فَقد مبرر وجوده .

عندما يعرض عليها الزواج، ترد دون تفكير وتقول له : «وماذا أجنى من ذلك سوى أن ألد مجموعة من الأوغاد»، أُعجب «بتلر» بهذه العملية التى عليها «سكارليت» فيقول : «.. إن أى سيدة جنوبية أخرى كانت إما سترد أمامى قوانين الشرف الجنوبى، أو أن تُرينى طريقى إلى الباب» .

ولكن ولا العملية الشديدة التى يتمتع بها «بتلر» تنجيه من أزمة الحرب الأهلية، فعندما تقوم الحرب نجد أنَّه لا يمتلك (كما تمتلك سكارليت) الجذور التى يمكنه أن يعود إليها، هذا الشىء الذى يستطيع أن يستند عليه ويستمد منه قوته، ففى وسط كل هذا الانهيار يواجه نفسه - لأول مرَّة - بحقيقته، وهو الخواء الذى يشعر به فى داخله، لذا نراه يقوم بتلك المجازفة الغريبة، حيث ينضم إلى الجيش الجنوبى فى أوج خسارته!!، إنَّه يحاول أن يستعيد انتماءه، وهويته .

عندما يعود «بتلر» ويتزوج من «سكارليت» (والتى ربما من الناحية العملية هى المرأة الجنوبية الوحيدة التى قد تقبله زوجاً) لكن هذه المرَّة لا يجذبه فيها عمليتها الشديدة، ولكن ينجذب إلى العالم الآخر الذى ينتمى إليه: الجذور، والتقاليد العريقة، والمجتمع النبيل .

وعبر ابنته التى يسميها «بونى الزرقاء» - كما العلم الجنوبى الأزرق - والتى أنجبتها له «سكارليت» يجد طريقه فى المجتمع النبيل، وخاصة أنَّه فى تلك الفترة كان قد وجد «سكارليت» فى فترة انغماسها فى نجاحها المادى وانجرافها المؤقت عن جذورها . لذا عندما تموت ابنته «بونى» إثر سقوطها من صهوة جواد، يموت الجانب الذى يبقيه مع «سكارليت»، عالم الجذور، «بونى» تذكرته إلى عالم الجنوب العريق ماتت، فأعادته إلى

حالة خوائه الأولى، وعندما تسأله «سكارليت» عمَّا هو فاعل نراه يقول : «بصراحة يا عزيزتى لا يهمنى الأمر» !!

كان رحيل «بتلر» ومن قبله «إشلى» قد جعلها تفقد توازنها لوهلة، لكن «سكارليت» لا تقع، فبعد أن يخبرها «بتلر» برحيله تجفف دموعها (وتذكر المؤلِّفة مارجريت ميتشل أن بريق الإعجاب كان يلمع فى عينى بتلر لأنَّه يُدرك أن هذه القوة النابعة منها هو ما يفتقده)، «سكارليت» عملية مثله لكنها ليست فى خوائه، تجفف دموعها وتبدأ التفكير فى ترتيب حياتها، وتعود إلى مصدر قوتها من جديد : «تارا» هجين الجذور الجديدة، تقول «سكارليت» : «رغم كل شىء : غداً يوم آخر» Tomorrow is a nother day .

وها هى تتمكَّن الأديبة من التقاط اللَّحظة التى أدركت فيها «سكارليت» فجأة (وهى تطالع الحسابات المتداخلة) أنَّها - وهى المرأة - لا تقل فهماً عن الرجال سادة الحياة، تلك الفكرة - حول أن المرأة لا تقل مهارة عن الرجال فى إدارة الأعمال، بل وتبزهم فى ذلك - كانت فكرة ثورية حقاً بالنسبة إلى «سكارليت» التى تربت على الثقة بأن الرجل يعرف كل شىء، أمَّا المرأة فضعيفة المخ، وبالطبع كانت قد عرفت منذ زمن طويل أن الأمر ليس على هذه الشاكلة تماماً، إلاَّ أن ذلك الوهم الطيب ظلّ حيًّا فى وعيها، ولم يسبق لها من قبل أبداً أن صاغت هذه الفكرة العجيبة بكلمات . كانت جالسة لا تتحرَّك، يرقد مفتوحاً على ركبتها دفتر الحسابات، وفمها فاغر قليلاً من الدهشة، وهى تفكر بأنَّها خلال جميع هذه الشهور الشحيحة فى «تارا» كانت تشتغل شغل الرجال . لقد نشأت على اليقين، بأن المرأة بمفردها عاجزة عن تحقيق شىء، ولكن ها هى تمكنت من رعاية المزرعة دون مساعدة رجل، كانت تدور فى رأسها فكرة هى : «نعم، نعم، لقد تمكنت، وأعتقد أن النساء يستطعن فعل كل شىء فى الدنيا، ولسنا بحاجة إلى رجل، اللَّهم إلاَّ من أجل الإنجاب . وبهذا الخصوص، فما من امرأة عاقلة، فى الواقع، ترغب طوعاً بإنجاب طفل» .

هناك أمكنة فى الرواية قوية، فهناك قصة صراع «سكارليت» وأهل بيتها من أجل البقاء فى «تارا» الخربة بعد انتهاء الحرب الأهلية مباشرة، لا تزال طازجة فى ذاكرة

القُرَّاء تلك الأزمنة الطيبة التى كان بوسع الأبطال خلالها : «أن يعيشوا بكل بساطة دون أن يدركوا سحرهم وروعتهم، أى كما هم، وانسجامهم كما فى الفن الإغريقى»، تلك الأزمنة التى كان فيها التوأم الفوضويان «تارلتون» يقيمان مسابقات لا تنتهى ويجريان وراء الفتيات، وأمهما «بياتريس» التى كانت مجنونة بخيول القبائل، ثم «كيتلين كالفيرت» الحسناء المرحة التى وشوشت «سكارليت» ذات مرَّة وهى تحكى لها (قصة فظيعة) عن «بتلر» (الفظيع) وعلاقاته مع النساء . والسيدة «إيلين أوهارا» التى كانت تحكم كملكة فى «تارا»، وهى السيدة النبيلة والمتزمتة أيضاً، حيث كانت تعيش أسرتها كلّها فى ارتياح فى ظلِّ حمايتها الآمنة . ولكن .. ها قد مات التوأم، وها هى «بياتريس» أمها فى ثوبها الممزق تجلس وحيدة قرب مربط الخيل، وليس فيه إلاَّ حصان البونى العجوز الذى هو كل ما تبقى من الأسطبل الرائع !!

و «كيتلين كالفيرت» التى فقدت أباها وأخواتهم قد استسلمت لليأس تماماً وتحوَّلت إلى شحاذة بيضاء !! وقد ماتت «إيلين» وجُن «أوهارا»، و«إشلى ويلكس» معشوق «سكارليت» لم يعد يصلح لدور المعشوق !!

هذا الانكسار الحاد لنمط الحياة المألوفة حين يبدو وكأن كل شىء يتناثر ويذهب هباء، فيما الحياة لا تنتهى، فيجب على الإنسان أن يتآلف ويتلاءم مع الجديد، وأن يلعب وفقاً لقواعد مختلفة تماماً، وألا يكتفى بتغيير نمط حياته بل وطبيعته الخاصة . هو الحال التى وجد أبطال «مارجريت ميتشل» أنفسهم فى دوامتها .

الرواية ومؤلفتها «مارجريت ميتشل» فى ميزان النقد الأدبى :

انتقدت الرواية لأنَّها تعتمد على قصة عاطفية لا تحمل تعقيداً داخلياً، بل إنَّها كسائر الروايات العاطفية قليلة القيمة الأدبية تعتمد على التعقيد الظرفى الخارجى بين البطل والبطلة : كظروف الحرب مثلاً التى تفرق بين الحبيبين، أو كوجود غريم للبطل يحاول أن يستحوذ على قلب الحبيبة .

والرواية إذا ما توخينا الدقة لا تندرج تماماً فى إطار قصص الحبّ الوردية وذلك قبل كل شىء بفضل البطلة «سكارليت» التى ليست على الإطلاق (نموذجاً نسائياً يُحتذى)

وليست فتاة شاعرية حالمة تنتظر محبوبها، بل هى بالأحرى لا تنتظر محبوبها وإنما تحصل عليه مثلما تحصل على المال !!

و «مارجريت ميتشيل» نفسها لم تكن أبداً تنظر إلى بطلها «سكارليت» كبطلة فهى تقول : «لقد حاولت أن أصُور امرأة ليست رائعة على الإطلاق، امرأة قلما نستطيع أن نقول عنها شيئاً حسناً، وحاولت أن أنجح فى نسج شخصيتها، وأرى أنَّه لشىء سخيف ومضحك كون «سكارليت» أصبحت شبيهة ببطلة قومية . كما أعتقد أنَّه شىء شنيع للغاية – بالنسبة لوضع الأمة الأخلاقى والعقلى – أن تكون الأمة قادرة على أن تصفق وتولع بامرأة تسلك هذا السلوك» .

على أن «سكارليت» ليست امرأة عديمة الأخلاق أبداً، أى ليست ماجنة بالمعنى المعاصر لهذه الكلمة، إنَّها لا تطيق غريمتها، ومع ذلك فإن الغريمة تظل على قيد الحياة بفضل «سكارليت» تحديداً . ثم أن «سكارليت» لا تحب أخواتها أيضاً، ولكنها ملزمة بالاعتناء بهن، وهى على بخلها وطمعها ترسل المال إلى قريباتها فى «شارلستون» البعيدة، مهتدية بفضيلة ضرورة تقديم المساعدة للأقرباء، وفضلاً عن ذلك فإنَّها تُحسن الالتزام بكلمتها، هذا الجمع لصفات متناقضة فى شخص واحد (النُّبل والطمع، الحب النزيه عن الغرض والقدرة على بيع النفس، التصرُّف باستقامة والغش من أجل المصلحة الشخصية) إنْ ما هو إلاَّ تجسيد للجمع بين براجماتية (نفعية) الشمال، ومفهوم الجنوب للشرف، وهو ما يجعل شخصية «سكارليت» جذابة وممتعة إلى هذا الحد .

نجاح منقطع النظير على المستوى العالمى :

حين صدرت رواية «ذهب مع الريح» فى شهر يونيه عام 1936م لم تكن مؤلفتها «مارجريت ميتشل» تتوقع أن تصبح روايتها أشهر وأكثر رواية أمريكية انتشاراً، فبحلول نهاية ذلك العام زادت مبيعات الرواية الملحمية (المؤلَّفة من 1037 صفحة) على مبيعات أى كتاب آخر يُنشر فى تاريخ أمريكا باستثناء الكتاب المقدس، ولا زالت هذه الحقيقة قائمة حتى هذه الأيام بفضل الطبعات الإضافية التى صدرت لهذه الرواية على مرّ كل هذه السنوات.

ومِمَّا يثير الدهشة أن النجاح المُذهل الذى حققته الرواية فى أمريكا تكرر فى الخارج بعد أن تُرجمت الرواية إلى عشرات اللغات.

رواية ذهب مع الريح تتحوَّل إلى فيلم سينمائى عالمى :

افتتح فيلم «ذهب مع الريح» فى دور السينما فى أواخر عام 1939م وقام ببطولته: كلارك جبيل، وفيفيان لى، وليزلى هوارد، وأوليفيا ديها فيلاند، وتوماس ميتشيل، وبربارا أونيل، فلاقى استحساناً كبيراً من الجمهور والنُّقَّاد وتحوَّل إلى أنجح فيلم على شباك التذاكر فى تاريخ السينما، وسجل أرقاماً قياسية فى الإيرادات عند افتتاحه .

الرواية أم الفيلم ؟

عدد كبير من النُّقَّاد يؤكدون أنَّه مَنْ قرأ الرواية جيداً لا يتأثر بالفيلم كثيراً الذى أدهش الجمهور فى وقته بسبب التقنيات الجديدة فى الإخراج، والتلوين، والميزانية الضخمة التى أعتُمدت لإنتاجه، وسحر الممثلين «كلارك جبيل» و«فيفيان لى» .

وهم يبررون ذلك بأن رؤية الفيلم وحبكته لا تعود لـ «مارجريت ميتشل»، فالنص تمت زخرفته على الشاشة . ولعلّ المشاهد يلاحظ أنَّه فى بداية الفيلم هناك إشارة إلى حضارة ذهبت مع الريح . وهذا غير موجود فى الرواية المقروءة، فلقد كانت «مارجريت ميتشل» مهووسة بتصنيف الأفعال الشائنة المقترفة التى قامت بها قوات الاتحاد فى الجنوب، ولكن النسخة الهوليوودية كانت مهووسة فى المقابل بمسألة «العِرق»، فإذا استثنينا «هانى ماك دانيا» التى حصلت على جائزة الأوسكار للعبها دور «مامى» فإن الشخصيات السوداء فى الفيلم كانت أكثر عدوانية ممَّا هى عليه فى الرواية، خصوصاً «بريسى» التى لعبت دورها الممثلة «بترفلاى ماكوين»، ومع ذلك

حاول منتجو الفيلم أن يعتموا رواية «مارجريت ميتشل»، لذلك بدأوا بعملية تهدف إلى تحقيق ذلك، فالبطل «ريت بتلر» الساكن فى مخيلتنا الجماعية لا يعود إلى «مارجريت ميتشل» بل إلى هوليوود التى تمكنت من ابتكاره عبر الممثل العالمى «كلارك جبيل» حتى أن الشخصية الأصلية التى خطتها الكاتبة تم نسيانها بشكلٍ كبير.

الرحيل :

مؤلفة الرواية اليتيمة قد جلبت لها الشهرة والثراء، ولكنها لم تجلب لها السعادة، فقد لقيت حتفها حين دهستها سيارة وهى تعبر الشارع فى مسقط رأسها مدينة أتلانتا عام 1949م، وهى المدينة التى تقع فيها معظم أحداث الرواية الأسطورية «ذهب مع الريح» ترحل «مارجريت ميتشل» وعمرها 49 عاماً !!

obeikandl.com